المكتب الخامس
أو
نظرية السمكة [1]

تر. أ. شقرون
جامعة الجزائر

1- Henry Descombien, Guerre d'Algérie 1959-60. le Cinquième Bureau ou le théorème du Poisson, Ed. l'Harmattan, Paris, pp (51-57).

من لم يسمع منا بالمقولة الشهيرة لما وتسه تونغ (Mao Zedong)التي تقول أن الجيش الثوري يجب أن يتحرك في وسط الشعب " كالسمكة في الماء"؟ أو بالمقولة الأقل شهرة للينين التي وردت كثيراً في المنشورات المتخصصة في الخمسينيات والقائلة بأن " غزو أوروبا يتم عبر إفريقيا".

توجد في حوزتي " المجلة العسكرية للإعلام"، العدد 281، فيفري – مارس 1957، " الملاحظات الإعلامية حول العمل النفسي"، العدد 13، سبتمبر 1959، الشبه سرية منها والجد سرية، التي تحمل ترقيما سريا وعدة مناشير وزارية وتعليمات عسكرية صادرة عن باريس، الجزائر ووهران (من القيادة أو المكتب الخامس)، تقارير، حصائل، دراسات مستقبلية، المؤلفات الكتابية، الخطية الصوتية على مستوى فليق وهران (C.A.O) الموجودة في خزانتي الحائطية، كل هذه المواد تعطيني انطباعا غريبا. لقد قمت بإعادة قراءتها بتمعن، كما قمت بتناولها وسماعها قبل تدوين هذا الكتاب.

لقد تحدثنا كثيرا مع أصدقائنا عن هذه الفترة البعيدة. فهذا الكتاب يبدو لي الآن وكأنه مزيج من الحقائق الجامدة، نوع من الإشباع وندم لا ينقطع؟ إنني أميل إلى الاعتقاد في عدم جدوى أي شعور حقيقي أمام أي تفسير كان.

إننا نعرف جيدا قصة **المكتب الخامس**، أسماء رؤسائه المتعاقبين، مفكرية، علاقاته السياسية والعسكرية، كل ذلك يدركه العام والخاص. أكرر هنا أنني لا أسعى إلى القيام بعمل المؤرخ، هناك ببليوغرافيات متميزة في مؤلفات ممتازة، ذلك ما يقودني إلى التفكير في الإشارة إلى ذكر الكتاب الثالث للقانون الكنسي (Le troisième livre des canoniques) بعد لينين ومـــــاو

مـــــاو (Mao) المصنف الشهير " Viol des foules" (اختراق الجماهير) لتـــــــــشاخوتين (Tchakhoutine) (N.R.F, 1952)

لا بد من التذكير بأن خطاب برازافيل يعود إلى جانفي 1944 وندوة باندونغ إلى أفريل 1955. لقد وقّعت فرنسا على اتفاقيات جنيف التي وضعت حدا للحرب الهند الصينية في جويلية 1954، أي ثلاثة أشهر قبل اندلاع " الثورة" (insurrection) الجزائرية، في نوفمبر من نفس السنة. لقد كانت هنالك أحداث سطيف، مدغشقر، المغرب، تونس. لقد كان يوجد العالم في غمرة الحرب الباردة رغم وفاة سطـــــالين (Staline) وشعـــــبية خروتـــــشف (Khroochtchev) وكذا في غمرة تصفية الاستعمار.

لا ينبغي أبدا إغفال مكانة الحرب الهند الصينية في حرب الجزائر لأنه، في عام 1992، بدأ الجمهور الفرنسي يفتح عينيه على الهند الصينية عبر المشاهد التي بدأت تُعْرَض عليه، ومن ثم أصبح من الممكن التكلم والفهم بأن الهند الصينية قد استحوذت على قلوب الناس الذين شاهدوها. اعتقد أنه وقعت ولا تزال قصة حب فاشلة بين الفرنسيين والفيتناميين. هذا هو اليقين الذي منحتني أياه القصص، الذكريات والتصريحات السرية لقدماء محاربي الهند الصينية الذين التقيت بهم داخل أو خارج الجيش والذين هم غالبا في سني.

إنني مقتنع بأن الحنين إلى الهند الصينية قد ظل بالنسبة إليهم، أكثر من حنينهم إلى الجزائر. فبينما، في 1954، لم يجتر بعد الضباط الفرنسيون إهانتهم حتى انفجرت **الثورة الجزائرية**. لقد أدرك بعضهم ذلك تمام الإدراك. لقد قاتلوا سُدًى لكنهم لم يهزموا سُدًى، و لم يعانوا من المعتقلات سدى، وسوف يستخرجون العبرة اللازمة من كل المحن والدروس التي أُرِيدَ حشوها في

أدمغتهم. إنهم، هذه المرة، يدركون حقيقة الأمر ولا يريدون أن يتكبدوا هزيمة أخرى. لا ينبغي أن ننسى بأنه يوجد، في الطرف الآخر، عدد كبير من مقاتلي جيش التحرير الوطني، الذين مروا بنفس التجربة ويفكرون بنفس الطريقة وفي اتجاه معاكس.

ولذا فإن العقيدة التي وضعها **المكتب الخامس** بسيطة ومنطقية.

أولا: تختبئ وراء وطنية البلدان المستعمرة، الشيوعية التي تمليها موسكو. إن الإتحاد السوفياتي لا يعمل إلا على غزو العالم في ظل الفرص والتقلبات التي تمنحها له القوى الغربية الماضية، والآن جاء دور الجزائر.

ثانيا: إن التقنية المتبعة هي **تقنية الحرب الثورية** التي أفاض في تنظيرها الروس والصينيون. لقد برهنت على فاعليتها في عدة بلدان منذ تروسكي وماوستيتونغ، وأخيرا في الهند الصينية حيث سَخِر الفقراء من الأغنياءِ.

إن الحرب الثورية هي الحرب المعاصرة، حرب الفقراء ضد الأغنياء. العالم كله في حرب إلا أن الناس يجهلون هذه الحرب، لا يرونها أو لا يرغبون في رؤيتها.

ثالثا: من الضروري بمكان **وضع استراتيجية الهجوم والهجوم المضاد**، فعليها يتوقف مستقبل فرنسا والحضارة الغربية. من أجل هذا الغرض، توجد ثلاثة أهداف رئيسية:

أ- المعرفة المعمقة للشكل الجديد لهذه الحرب التي سيتم دراستها وتلقينها.

ب- بفضل مفتاح النظرية العامة، سيتم فك شفرة التطبيق الميداني المتبع من طرف العدو في كل حالة خاصة، وفي حالة الجزائر هنا بالذات.

ج- بعد الإطلاع الكامل على نوايا وإنجازات الخصم السرية، يمكن الانتقال إلى الهجوم المضاد الذي يستدعى دوما إجراءات استعلاماتية، هدّامة وبنّاءة.

رابعا: سيقوم الجيش بأكمله بتطبيق هذه الإجراءات المعروفة بالتهدئة (Pacification) لخوض الحرب الثورية ومحاربة العدو بأساليبه نفسها والتواجد في وسط الشعب المُغَرَّ بِه والمستهدف، كـ " **السمكة في الماء**". إن الهيئة المتخصصة التي تتكفل بالإعلام وإعداد المهام تتمثل في **المكتب الخامس** للجيش، وهو ما يعرف بالعمل النفسي (السيكولوجي).

لقد تم وضع العقيدة بمهارة وشرحها شرحا وافيا. لقد استمعت إلى عرضها عرضا بارعا، على مسمع من الأعيان المدنيين والعسكريين من طرف رجلين. الأول، ضابط ساقه من خشب ولسانه من حديد وهو من الاستراتيجيين الذين يؤمنون بجيو سياسة وجيش جديدين. والثاني، مدني، صحفي وسياسي من الدرجة الثانية سيلتحق لا محالة بصفوف منظمة الجيش السري (OAS). فهو بخطابه الحماسي، وإن كان يريده عقلانيا، لم يَخْلُ من التزمت وكان يصب في الحملة الغربية المناوئة للبلشفية (الشيوعية الروسية) بل المناوئة للإسلام.

إن الجانب من العقيدة المثير للنقاش كان يوجد لدى الأول، والانفلاب غير المقبول كان يوجد لدى الثاني.

إن النقاشات التي كانت تجري بيننا مع القلة القليلة من الضباط الذين كنا نثق فيهم، علاوة على قدرتهم على قَبُول الحوار، كانت تدور بالطبع حول النظرية ووضعها حيز التنفيذ. لقد تكلمنا عنها يوميا طيلة عدة أشهر، الشيء الذي يمثل صفحات وصفحات أنا اليوم غير راغب وغير قادر على تدوينها. قد يكون هنالك، بعد بضع سنوات، مؤرخ تراوده فكرة حسنة حول إعداد أطروحة في هذا الموضوع، وسوف نفتح له أرشيفنا بكل سرور.

وباختصار شديد، فإنه يمكنني القول بأن الناس الذين كنت في عدادهم كانوا يجيبون نوعا ما على الحجج الآتية كالتالي :

أولا: ربما يكون الاتحاد السوفياتي قد احتفظ بحنينه إلى العالميـــة. إلاّ أن اتخـــاذ الوطنية حجابا، وترديد المقولة الشائعة، بأن فرحات عباس نفسيا عـــاجز عـــن إيجاد أمّة في الجزائر، قد عفا عليها الزّمن، لأن الأمة الجزائرية كانت موجـــودة، بالفعل.

أولا: لأننا أعددنا هذه الأمة خلال 130 سنة من الحكم الأحمـــق والجـــائر ثمّ صنعت نفسها بنفسها في الحرب ، منذ 1954. إن رفض هذه الحقيقة كان يعني تفسيرًا تاريخيا خاطئا، وإغفالها كان يعني خطأ سياسيا. هذان موقفان لا يمكـــن الاستهانة بهما.

ثانيا: كانت الحرب الثورية تشكل، في الواقع، القاعدة التي كانت ترتكز عليها جبهة التحرير الـــوطني، والمتمثلـــة في حـــر ب العصـــابات أو "الإرهـــاب" (terrorisme)، والدليل ، ببساطة ، على ذلك، هو أنها كانت لا تخفي ذلـــك. يكفي الإطلاع، مثلا، على النصوص المنشورة في جريدة "**المجاهد**" عقب أرضية مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956. إنْ دلّ هذا على شيء، فإنما يدّل علـــى أن

الثوار (rebelles) قد اتبعوا أحسن السبل للقتال الفعّال ضد فرنسا . إنّ مسألة تعلمّها في الصين أو في الهند الصينية أو أنهم تكوّنوا في مصر وتم تزويدهم بالسلاح من طرف الجمهورية الديمقراطية الألمانية (RDA) لا يغيّر شيئا في الأمر. نعم، إن هذه تعدّ عوامل هامة، إلا أن القول بأننا أبطال الغرب وأن الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت. فإن هذا يبدو لنا موضوعا مثيرا لنقاش عريض، قد يدخل في باب الانحراف والتبسيط وبالتالي فهو خطير حتى على الأهداف المنشودة.

غَداة الاستقلال، أعلنت الجزائر عن تبني الاشتراكية من قبل رجال "الأفالان" الذين تجنبوا الوقوع بين "مخالب الدّب" [...] .

ثالثا: بالنسبة لإستراتيجية **الهجوم والهجوم المضاد**، فإننا نختلف كلّيا مع التفكير الرسمي.

أ – لا شّكّ أن الحرب الثورية قد دُرسَت دراسة جيّدة ، حتى في أدقّ مراحلها إلاّ أنه أسيئ تعليمها وفهمها فضلا عن ضعف في تقبّلها وتطبيقها . لقد كان خطاب العمل النفسي يبدو خطابا غير واقعي، خطابا عقائدياً مُملاً أو خطابا خطيرا بل خطابا تحريضيا . كما أن الجيش ، في حقيقة الأمر، لم ولن يؤمن بهذا الخطاب. وفضلا عن ذلك فإن الجيش لن يقوم بأيّ شيء حتّ يعتقد المجندون الاحتياطيون بشيئ ما .

يعتبر هذا خطأ جسيما مهما كان الاختيار المتبّع غير أن هذا لم يكن يخيف أحدا، ولو كان من أوساطنا. ومن المألوف عند العسكريين، احتقار الجندي المحترف للجندي الاحتياطي واحتقار الضابط للجندي البسيط؟ [...]

والدليل على ذلك الحصّتان أو الحصص الثلاث الخاصة بالإعلام حول الجزائـــر والتي كانت تفرضُ علينا إبّان التدريب والتي كانت تجري بأيّة كيفيـــة كانـــت ومن طرف أيّ كان.

لقد كانت الحصّة تعتمد، عموما، على الأفـــلام المنتجـــة مـــن قبـــل « SCA » على غرار "أحداث الساعة السينيمائية" للخمسينيات وبدون فائدة. لقد توجه، خلال ثماني سنوات، الآلاف من الشبان إلى الجزائر دون أن يعرفـــوا السبب والهدف من ذلك. ومهما كان الأمر، فإنه لم يقل لهم أحد ذلك بصـــفة ذكية، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدّل على أن القيادة لا تـــؤمن بنظريـــات **المكتب الخامس** وتفضل الصمت أو إجراء التدريب على عجل . فماذا كـــان ينبغي أن يقال لهم؟

يوجد في هذا الصدد تعليمة جدّ هامة لـــوزير الأســـلحة بتـــاريخ 28 جويلية 1959، تحدّد أسس، أهداف وحدود العمل النفسي. يتعلّق الأمر بفصل العمل النفسي على الحرب النفسية وتفضيل هذا الأخير بمنحه هدف "التكـــوين وإعلام قوّات الأمّة المقاتلة". للتذكير فإن عمل القوات المسّلحة يخضع لمراقبـــة الأمة (وبالتالي للحكومة ومجلس النّواب) وإنّ مهمتهما تكمن في الحفاظ على القيّم الغربية لفرنسا والعالم الحرّ مع التصدّي لـــ "لمشاريع الخصم التفشيلية".

إن قراءة أولية يمكنها أن تعطي فكرة بأن الســـلطة القائمـــة في تلـــك الفترة، تحاول الاحتماء بالخلط بين الوازع الأخلاقي ودواعي الحرب. إنّ قراءة ثانية قد توحي بأن البراعة الظاهرية المبهمة للخطاب المبهم ليست سوى قلقـــا حقيقيّا حول ما يحسن فعله أو تركه، وهنا مصدر الغموض والارتباك. فكـــأن الأمن يتعلّق بأمرين لا ثالث لهما: إمّا أن السلطة العليا للجيش أحسّت بـــالعجز

أو أنها تركت ، عن قصد ، الأحداث تتجاوزها وتخرج عن سيطرتها . هـذا، بالطبع، الأمر الذي تم اتخاذ موقف بشأنه باستثناء الإشارة إلى الانزعاج النـاتج عن هذه الورقة العتيقة الرسمية جدّا...

فالنقاش السياسي كان يجري، بالطبع، على المستوى السياسي. إن بعض السلطات المستنيرة كانت ترفض إنشاء جيش مسيّس ، إمّا باسم التقاليد العسكرية الفرنسية وحدها، وإمّا باسم تقاليد الجمهورية والديمقراطية أو باسم الإنسانية أو المسيحية.

فالحرب الثورية تقتضي إذن جيشا جدّ مسّيس بعقيدته الصارمة ، بأجهزته الخاصة، ومحافظيه السياسيين ... نصل هنا إلى نقطة اللاّرجوع في التورّط الكلّي (وهنا كان ينبغي توريط المجندين توريطا كاملا ونهائيا ومن أجل عمل دينئ !).

كان الأمن يقتضي من الجميع الاعتراف بوجود اللعبة، معرفة ما إذا كنا نرغب في اللعب وفي احترام قواعد اللعبة.... لقد كان **المكتب الخامس** يدرك تماما أن الجميع كانوا مختلفين حول قواعد اللعبة ... ولهذا السبب أخفق في مهمته [...] .

فبالرغم من اختراقها من قبل مخبرنا السّريين وقيادتها من طرف ضباط مرّوا حتما بالمركز المتخصص بأرزيو (CIPCG) ، فإن كل وحدة عسكرية كانت تتصرف على هواها حيث تتصرف كما تشاء في قطاعها ، وكما يشاء القائد العام في كل الحالات.

ماذا كان ينبغي فعله؟ سؤال مُخْتَلَقٌ لأن الأسس كانت واهية.

ب – لأن الحرب التي تشنها جبهة التحرير الوطني كانت مفككـــة الشّـــفرة (décodée) ، إلى درجة أن التحليلات كانت تسبق أحيانا الأعـــراض. وبعـــد مضي أربع أو خمس سنوات، كان الجيش يدرك تمام الإدراك من يحارب فرنسا وكيفية محاربتها . لقد كان الأمر صحيحا.

ج – غير أنه حتى يتم إحاطة الجيش إحاطة جيدة، فإن هذا الأخير في حاجة إلى التزوّد بالمعلومات، الشيء الذي يطرح في الجزائر قضية التعذيب ، المعـــتقلات، المحتشدات، والمسألة الدائمة لثنائية: القمع/ الإرهاب، إلى جانب المسألة الدائمة الخاصة بالغاية والوسيلة التي تشكل الأخلاقيات الحقيقية لحضارتنا.

رابعا: لأنه، في النهاية ، كل شيء كان يقوم على هذه الأمور.

فإذا كان الأمر يستدعي الحرب والمجندين **والمكتب الخامس**. ويقـــوم الجـــيش بتشييد بنفسه المدارس والمستشفيات، والعمل الاجتماعي الرائـــع للقطاعـــات الإدارية المتخصصة (SAS) والـــ « EMSI » ... فماذا فعلنا طيلة 130 سنة؟

لقد كنا نجيب بأنه فات الأوان. إن الشـــعب الجزائـــري لم يعـــد يرغـــب في الإصلاحات التي كانت مع ذلك، تقدم له "على أطراف الأصـــابع" ، وكـــان بعيدا كلّ البعد عن أي اندماج.

ومن تمّ فإن الجيش لن يكون أبدا مثل **السمكة في ماء هذا الشـــعب** لسبب رئيسي وهو أن **هذا الشعب كان جزائريا**، وهكـــذا فإننـــا نعتقـــد أن النظرية انهارت كليّا . وهكذا أصبح من الممكن خسر الحرب سياسيا ولو كان من الممكن كسبها عسكريا [...].